أختاه أين أنت من التاريخ

إعداد

القسم العلمي بدار ابن خزيمة

مصدر هذه المادة :

دار ابن خزيمة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسـول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد:

إن نظرة متفحصة في التاريخ، لتنبئ عن مـدى الفـرق الشاسع بين همة نسـاء السـلف، وما عليه نسـاء هـذا العصر إلا من رحم الله!

لقد ضرب نساء المسـلمين في القـرون الماضـية أروع الأمثلة على علو الهمة وشموخها، وسجلن للأجيال بطولات رائعـة، لا يـبرح نسـاء هـذا العصر إذا قرأنها أن يتخيلنها ضـربًا من ضـروب الخيـال، لـولا قواطع الأدلة التي تثبت وقوعها في التاريخ.

لقد جعلن من حياتهن قدوة للأجيال، في العبادة والجهاد، وفي الصـيام والقيـام وفي طلب العلم والتربية والدعوة والتضحية من أجل دين الله.

وفي هـذا الكتـاب – نسـتعرض نمـاذج قيمـة، من أحـوال نسـاء السـلف، لعل الله يحـيي بـذلك الإيمـان في قلـوب نسـائنا، فتـذب، فيصن روح العـودة إلى حـنين الماضي، حيث العزة والتمكين.

أول من أسلم – امرأة!

لما أوحى الله جل وعلا إلى نبيه بالدعوة والتبليـغ، عـرض أمـره على زوجته الطـــــــاهرة أم القاسم خديجة بنت خويلد رضي الله عنهـا، فما كـان منها إلا أن خفق قلبها للــدين واســتجاب حســها وشــعورها بصدق ويقين لسيد الأنبياء والمرسلين .

قال الإمام عز الدين بن الأثير رحمه الله تعــالى: «خديجة أول من أســلم، بإجمــاع المسلمين»[1].

فلم تعبأ رضي الله عنها بما قد ينالها من المشركين، فكانت خير نصير وظهير للنــبي فكانت تسانده وتؤيده بمالها ونفســها وما تملـــك، لـــذلك كـــانت لها مكانة في قلب رسول الله لا تعـدلها مكانة سـائر أمهـات المؤمـنين، فعن أم المؤمـنين عائشة رضي الله عنها قـالت: كـان رسـول الله إذا ذكر خديجة لم يكد يســـأم من ثنـــاء عليهـــا، واســتغفار لهــا، فــذكرها يومًــا، فحملتــني الغيرة، فقلت: «لقد عوضك الله من كبـيرة الســـن!» قـــالت: فرأيته غضب غضـــبًا، أســقطت في خلــدي، وقلت في نفســي:

---

[1] (?) أسد الغابة (7/78).

«اللهم إذا أذهبت غضب رسـولك عـني لم أعُدْ أذكرها بسوء».

فما رأى النـبي ما لقيت، قـال: **«كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ كـذبني النـاسُ، وآوتـني إذ رفضـني النـاس، ورزقت منها الولد وحرمتموه مني».** قالت: فغـدا وراح عليَّ بها شـهرًا»[1]؛ فهـذا الحديث يـدل على مكانتها في قلب رسـول الله ، وعلى التضحية الكبيرة الـتي قـدمتها إيمانًا بالله ورسـوله فكـان أن بشـرها الرسـول بـبيت في الجنة من قصـب، لا صـخب فيه ولا نصب»[2] فرضي الله عنها وأرضاها.

أخـتي المؤمنـة: لقد كـانت خديجة رضي الله عنها خـير نصـير للإسـلام، وبها وبأمثالها نصر الله الـدين، وهـزم جمـوع المشـركين، ولقد كسـبت بسـبقها للإسـلام والإيمان شـرفًا عظيمًا في الـدنيا والآخـرة، وإننا لنأمل أن يعلق وسام هذا الشـرف في أعناق المؤمنات، إنه شرف السـبق للعـودة

---

1 (?) انظر الإصـابة لابن حجر (12/217-218)، والحديث رواه الإمام أحمد بنحوه: (6/117-118).

2 (?) سـيرة أعلام النبلاء 2/10 والقصب هو اللؤلؤ المجوف الواسع كالقصر.

إلى الدين.. فخديجة رضي الله عنها كسبت شـرف السـبق في البـدء.. ونحن نريد منك كسب شرف السبق للعود!

قـال رسـول الله : «**إن الإسلام بـدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطـوبى للغربـاء**». نعم؛ إنه لابد من دفع ضـريبة العودة.. كما دفعت ضريبة البـدأ.. وهي في الحالتين واحدة: إنها الغربة.

فكوني- حفظك الله– ناصرة لهـذا الـدين بالتزامك واسـتجابتك لله ورسـوله، اجعلي نصب عينيك أم المؤمـنين قـدوة.. وتحملي وحشة الطريق والغربة.. فـإن طريق الجنة محفـوف بالمكـاره وطريق النـار محفـوف بالشهوات!

أول شهيدة في الإسلام امرأة

ومن عجيب قـدر الله أن تكـون أول شـهيدة في الإسـلام امـرأة، ليعلم بـذلك المسلمات طوال التاريخ أن دور المرأة في نصـرة الـدين عظيم، فهي أول من خفق قلبها للـدين، وأول من روت تربة الأرض بدمها نصرة لله رب العالمين.

إنها سمية بنت خُبَّاط أم عمار بن ياسـر، كانت سابعة سـبعة في الإسـلام، وكـان بنو

مخـــزوم إذا اشـــتدت الظهـــيرة، والتهبت الرمضاء، خرجوا بها هي وابنها، وزوجها إلى الصـحراء، وألبسـوهم دروع الحديد وأهـالوا عليهم الرمال المتقدة، وأخـذوا يرضـخونهم بالحجـــارة، ورســـول الله ﷺ لا يفتأ إذا مر عليهم أن يقـــول: صـــبرًا آل ياسر فـــإن موعدكم الجنة! حتى تفـادى الـرجلان (ابنها وزوجهـــا) ذلك العــذاب المر بظـــاهرة من الكفر أجرياها على لســـــــانهما، وقلبهما مطمئن بالإيمــــان، وقد أعــــذر الله أمثالها بقوله تعــــالى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْــرِهَ وَقَلْبُــهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَـــــانِ**﴾؛ فأما المـــــرأة فاعتصـمت بالصـبر، وقـرت على العـذاب، وأبت أن تعطي القـوم ما سـألوا من الكفر بعد الإيمان، فذهبوا بروحها وأفظعوا قتلتها، فماتت رضي الله عنها، وكانت أول شـهيدة في الإسلام!

فـــأين الأخـــوات من أمثـــال ســـمية في عصـــرنا! وأين من تصـــبر على الحجـــاب الشـــرعي دون انســـياق وراء خـــزعبلات الموضة وأضوائها!

* وأين من تلازم طاعة الله جل وعلا وطاعة زوجها ووالديها!

* وأين من تضـــحي بوقتها في ســـبيل التعلم والتعليم والدعوة!

لقد كان شرفًا للمرأة أن تكون الشـهادة في الإسلام منطلقة على يـدها، فـإذا كـانت سمية بنت خُبَّاط رضي الله عنها قد شهدت على التزامها بالإســلام بـــدمها وجســـدها وروحها.. فلكي تترك لأجيال المسلمات من بعـدها إرثًا من التـاريخ يفخـرن به ويقتـدين بنهجه ما دامت السموات والأرض.

أختاه..

يا من هديت إلى الإسلام
وما ارتضيت سوى منهاج خير
يا در حفظت بالأمس غالية
واليوم يبغونها للهو واللعب
يا حرة قد أرادوا جعلها أمة
غريبة العقل، لكن اسمها
هل يستوي من رسول الله
دومًا، وآخر هاوية أبو لهب
وأين من كانت الزهراء
ممن تقفت خطا حمالة
أختاه لست ببنت لا جذور لها
ولست مقطوعة مجهولة

أنت ابنة العرب من الإسلام
في حضن أطهر أم من أعز
فلا تبالي بما يلقون من شبه
وعندك العقل إن تدعيه
سليه: من أنا؟ ما أهلي؟
والعرب؟![1]

امرأة تصنع الأبطال

لقد كـانت الخنسـاء من خـيرة نسـاء العرب في الجاهليـة، ويـوم أن قتل أخوهـا، بكته بُكاء صار مثلاً في الجزع والنياحة، من شدة ما كانت تجد في نفسها من فقده!

ولكنها لما أسـلمت وحسن إسـلامها، أصـبحت تصـنع الأبطـال، وتعطي الـدروس والعبر للأجيال؛ إذ لما تأهب أبناؤها وأشطار كبـدها إلى القتـال، وعظتهم موعظة القائد الصـارم الـذي يشـحذ همم الجنـود، ويوقظ سـبات الرقـود، فقـالت لهم: «يا بـني إنكم أسلمتم طـائعين، وهـاجرتم مختـارين والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امـرأة واحـدة، ما هجنتُ حسـبكم، وما غيرت نسبكن، واعلموا أن الدار الآخرة

[1] (?) أختي المسلمة من أمرك بالحجاب ص24.

خير من الدار الفانية.

اصبروا وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها وحللت نارًا على أوراقها، فيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة».

ولما حمي وطيس القتال، تدافعوا على العدو، حتى ماتوا جميعًا رحمهم الله، فما كان منها إلا أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من الله أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة»[1].

فأين أمثال الخنساء في زماننا، وأين من يعلي همم البنات والأبناء للتضحية في سبيل الدين إن لم يكن بالقتال، فبالعلم، والعمل والدعوة والنصيحة وبذل المعروف وكف الأذى.

أختي المسلمة: تذكري أن البيت هو مدرسة الأبناء.. وأنك المعلمة فيه، فبمقتضى التوجيه والتربية التي ترعين بها أبناءك يكون نهجهم ونتاجهم في الحياة، ولذا فإن حسن التوجيه وأدب التربية

---

[1] (?) انظر الإصابة 7/615-616.

شرط في صناعة الأبطال..

فالبنت مدرسة إذا أعددت شعبًا طيبًا

ومن تأمل واقع المسلمين اليوم وجد أن السـبب في ظهـور الانحطـاط في جـوانب كثــيرة من حيــاتهم، هو غيــاب روح التربية والتوجيـه، وغيـاب دور الأمومة الريـادي في صناعة الرجال الذين يرفعون راية الدين.

فكـــوني رعـــاك الله مهتمة بأبنائـــك.. واجعلي منهم جندًا لله!

المرأة.. تهزم الروم!

في وقعة اليرموك شـهد التـاريخ للمـرأة بالشجاعة والبطولة، والتضـحية والبـذل من أجل نصـــرة الإســـلام والمســـلمين، ولقد أصاب الروم من العجب والدهشة حين رأوا نساء المجاهدين يضربن بالأحجـار والخشب والعصــي، ويقفــزن فــوق فرســان الــروم، ويقتلن كما يفعل الرجال بل أكثر!

وفي زماننا – انقلبت الأحـوال – وأصـبح في قلـــوب كثـــير من النســـاء تعظيم للـــروم (الغـــرب) وأحوالـــه وأصـــبحن يقلدنه في كل صـغيرة وكبـيرة، إعجابًـا بأســلوب معيشــته وشخصــيته رجالــه ونسائه وأطفاله.

ذهب الذين يعاش وبقيت في خلف

ففي وقعة الـــيرموك، فر جمـــوع من المسلمين لما تكاثرت عليهم جيوش الـروم على الميمنــة، وهنا تظهر شـجاعة النســاء ودورهن في التحــريض على الجهــاد، حيث نــادت النســاء «يا بنــات العــرب! دونكم والرجـال، ردوهم من الهزيمة حـتى يعـودوا إلى الحــرب» قـــال ســـعيدة بنت عاصم الخولاني: كنت في جملة النساء يومئذ على التـــل، فلما انكشـــفت ميمنة المســـلمين صــاحت بنا عقــيرة بنت غفــار وكــانت من المــترجلات البــاذلات، ونــادت: «يا نســاء العــرب! دونكم والرجــال، واحملن أولادكن على أيـــديكن، واســتقبلنهن بـــالتحريض». وجعلت ابنة العاصي بن منبه تنـــادي «قبح الله وجه رجل يفــــرر عن حليلته»، وجعل النساء يقلن لأزواجهن: لســتم لنا ببعولة إن لم تمنعوا عنا هؤلاء الأعلاج[1]»[2].

وكانت خولة تقول هذه الأبيات:

يا هاربًا عن نسوة لها حمال ولها

يسلموهن إلى تملك نواصينا مع

---

[1] (?) الأعلاج: جمع علج: وهو الرجل الكافر من العجم.

[2] (?) البداية والنهاية (7/11).

أعْلاجُ سُوء فسق	ينلن منا أعظمَ

قـــال ابن جريـــر: «وقد قاتل نســاء المسلمين في هذا اليوم، وقتلوا خلقًا كثـيرًا من الــروم، وكن يضـــربن من انهــزم من المسـلمين، ويقلن: «أين تـذهبون وتـدعوننا للعلــوج؟ فــإذا زجــرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال»[1].

وخـرجت هنـد ابنـة عتبـة، وبيـدها مزهـر ومن خلفهـا نسـاء من المهـاجرين وهي تحرض المجاهدين وتقول الشعر الــذي قالته يوم أحد.

نحن بنات طارق	نمشي على
مشي القطا	قيدي مع المرافق
ومن أبى نفارق	إن تغلبوا نعانق
أو تدبروا نفارق	فراق غير واثق
هل من كريم	يحمي عن العواتق

ثم اســـتقبلت خيل ميمنة المســـلمين، فــرأتهم منهــزمين، فصـاحت بهم: على أين تنهزمـون؟ وإلى أين تفـرون؟ من الله ومن جنتــــه؟ هو مطلع عليكم». ونظـــرت إلى زوجها أبي ســـفيان منهزمًا فضـــربت وجه

---

[1] (?) المصدر نفسه.

حصانه بعمودها، وقالت لـه: «إلى أين يا أبا صخر؟ ارجع إلى القتال، ابذل مهجتك حـتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسـول الله ﷺ، قال الزبير بن العـوام: فلما سـمعت كلام هند لأبي سـفيان، ذكـرت يـوم أحد ونحن بين يـدي رسـول الله ﷺ قـال: فعطف أبو سفيان عنـدما سـمع كلام هنـد، وعطف المسلمون معـه، ونظـرت إلى النسـاء وقد حملن معهم، وقد رأيتهن يسابقن الرجال.

ولقد رأيتُ منهن امـرأة وقد أقبلت على علج [1] عظيم وهو على فرسه، فتعلقت به، وما زالت به حتى نكبته عن جواده، وقتلتـه، وهي تقـول: «هـذا بيـان نصر الله للمسـلمين!!» وفي هـذه الوقعة قتلت أسـماء بنت يزيد بن السـكن بعمـود خبائها تسعة من الروم»[2].

أختي المسلمة..

إن هـذه المشـاهد الجميلة النـيرة في تـاريخ المـرأة المسـلمة لتبعث في النفس الهمة والطمـوح وتقـذف في القلب التطلع والشـموخ.. فـالمرأة هي قـوام المجتمع

1 (?) أي فارس من فرسان الروم.

2 (?) انظر سير أعلام النبلاء 2/297.

ونــواة الأســرة، شــأنها في كل الميــادين الشــرعية عظيم! فتــأملي رعــاك الله في صولات المجاهدات كيف أوقعن أعــداء الله الروم في هزيمة نكراء سـجلها التـاريخ ولم يسجل مثلها بعد!

فشمري عن سـاعد الجـد، واصـنعي الأبطـال كمـا صـنع السـابقات، وكـوني لزوجك محرضة على الخير والفضل.

نحن في ذي يصل اللاحقين
قد هدانا السبيل وعلينا هداية الآيتنا

امرأة عابدة

وأما في العبـــادة فقد كـــانت أمهـــات المؤمنين عابدات زاهدات، قانتات طائعات، صائمات قائمات.

ومن بينهن أم المؤمـــــــــنين زينب بنت جحش بن رئــاب ابنة عمة النــبي ورضي الله عنها امرأة صناعًا، وكانت تعمل بيــدها، وتتصدق به في سبيل الله [1].

وكانت رضي الله عنها صـالحة، صـواحة، قوامة، بارة، ويقـال لهـا: «أم المسـاكين»، وقـالت فيها أم المؤمـنين عائشة رضي الله عنها بعد موتها: «لقد ذهبت حميدة متعبدة،

---

1 (?) سير أعلام النبلاء 2/217.

مفــزع اليتــامى والأرامــل»[2] وعن أنس قـال: «دخل رسـول الله المسـجد، فـإذا حبل ممــدود بين الســاريتين، فقــال: «**ما هــذا الحبــل؟**» قــالوا: حبل زينب، فــإذا فترت تعلقت به. فقال النبي : «**لا، حلوه ليصل أحــدكم نشــاطه، فــإذا فــتر فليقعد**»[2].

وقـــالت عائشة رضي الله عنها أيضًـــا: «كـــانت زينب بنت جحش تســـاميني في المنزلة عند رســـول الله ، ولم أر امـــرأة قط خـيرًا في الـدين من زينب، وأتقى للـه، وأصــدق حــديثًا، وأوصل للــرحم، وأعظم صــدقة، وأشد ابتــذالاً لنفســها في العمل الذي تتصـدق بـه، وتقرُّبا به إلى الله تعـالى ما عدا سـورةً من حـدَّة، كـانت فيها تسـرعُ منها الفيئة»[3].

أختي المؤمنة: فاجتهدي – رعـاك الله – في طاعة الله – واتخذي أمهات المؤمنين لك قدوة واقرئي أحوالهن في كتب التراجم والسير والمناقب، لتعــرفي ما كن عليه من العبادة والزهد في الدنيا، والتقرب إلى الله

1 (?) الإصابة 7/670.
2 (?) رواه البخاري (3/278).
3 (?) الإصابة 2/214.

بالطاعات وصالح الأعمال، وإياك والاغترار بما عليه نساء هذا الزمان؛ فإن الكثرة ليست دليلاً على الحق، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ وقال تعالى عن نوح: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

امرأة عالمة

ولقد كان للمرأة دور بارز في حفظ العلوم وتلقينها؛ فهذا الإمام أبو مسلم الفراهيدي المحدث يكتب عن سبعين امرأة»[1]، وهذا الحافظ ابن عساكر الملقب بحافظ الأمة، كان له شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء!![2]

ومن نماذج النساء العالمات في عصر السلف: حفصة بنت سيرين، أم الهذيل الفقيهة الأنصارية. قال هشام بن حسان: «قرأت حفصة بنت سيرين القرآن وهي ابنة اثنتي عشرة سنة، وماتت وهي ابنة تسعين».

وعنه أن ابن سيرين كان إذا أشكل عليه شيء من القرآن قال: اذهبوا فسلوا حفصة

---

1 (?) من أخلاق العلماء ص345 (الهامش).

2 (?) المرأة العربية 2/138.

كيف تقــرأ»، وعنه قــال: اشــترت حفصة جارية أظنها ســندية فقيل لهــا: كيف رأيت مولاتك» فــذكر إبــراهيم كلامًا بالفارســية تفسـيره: إنها امـرأة صـالحة، إلا أنها أذنبت ذنبًا عظيمًا فهي الليل كله تبكي وتصلي»[1].

أخيـــة: تـــأملي – حفظك الله – كيف جمعت هــذه المــرأة الصــالحة بين جمــال العلم والعبادة، فقد نورها الله بالقرآن علمًا وعملاً، وفي زماننا كـثر العلم وانتشـر، وملأ الشريط الإسلامي والكتاب الإسلامي أركان المكتبــات في الــبيوت، ولكن الفقه والفهم يكــاد ينعــدم؛ فهو مبســوط في الرفــرف مقبوض عن الصدور، ولقد كـثرت جمعيـات التحفيـظ، ولكن القليلات ممن هـداهن الله اللـــواتي يملأنها بالـــذكر والتلاوة والحفظ والله المستعان.

فـأين نسـاؤنا من نسـاء السـلف؟! وأين الثرى من الثريا! ولكننا لا نضرب صفحًا عن الأمـل، فلا تـزال في كل وقت وحين بـوادر خير في الزوايا، تنشر الخير وتدل عليه، ولا يـزال بصـيص نـور وضـاء هنا وهنـاك يضئ

---

[1] (?) سير أعلام النبلاء 4/507.

لنساء الأمة الطريــق، ويجنبها الزلل ويجــدد فيها الطموح والأمل، وبالله التوفيق. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * * *